مجاورة طريفة واقعة حول

معجزات الاســـلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

هل تطلبون من المختار معجزة ... يكفيه شعب من الاجداث أحياه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة ... ما ساسها قيصر من قبل أو شاه
(غنيم)

استويتُ إلى مكتبي المتواضع ، وفي النية أن أكتب فصلاً « للرسالة الغراء » عن نخاسة الأعراض وتجارة الزواج في شرق الأردن ؛ وفيما أنا أفكر في عناصر الموضوع ، وطريقة الدخول اليه وأستجمع له الخواطر الشاردة ، والأفكار الطافية فوق هموم العيش والإفلاس ، إذ بطارق يقرع عليّ الباب ثلاث قرعات متوالية ، ثم يقتحم الغرفة بدون استئذان ، ويجلس بالقرب مني على مقعد خشبي قديم ، أشبه ما يكون بمقاعد مقهى العتالين في باب العامود . وكانت بادرة الفكر أن أحوله عن هذا المقعد الوضيع الذي لا يتفق ومكانة الزوار ، ولكنه تشدد علي وأبى إلا أن يلازم مكانه الذي ظل جالساً فيه وكأنما يستجمع قواه ليقفز

كان طوالاً أجنأ ، يابسَ الوجهِ ، أثرمَ الثنية اليسرى ، متغطرقاً وعواعاً ، قد تفشّغ الشيب في لمته وذقنه الحليق ، توضحتهُ فتبينت في أسارير وجهه قصة طويلة ، إلا أنها خفيّةُ المعنى ، عديمة الإبانة ، غامضة الإشارة ، فألقيت عليه تحية المساء ، ثم سكتُّ علّه يبدأ الحديث ، ولكنه ظلّ مُبرطما ، ينكث السجادة بعصاه دون أن يتبس ببنت شفة ، فتنهمتُ كعادتي ؛ فحدجني بنظرة شزرة حسبت فيها سخط الإنس والجن ، ثم أخذ يتثاءب ويتمطى ، فكأنما كان يحمل حملاً ثقيلاً أزيح عنه بالتثاؤب ، إذ انبسطت أسارير وجهه ، وزال برطامه ، ولكنه ظل مع ذلك مطرقاً لا يتكلم ؛ فاستثقلتُ جلستهُ — كما قد يستثقل القارئ هذا الحديث — وقلت لنفسي لا بدّ من أن أستدرجهُ إلى الحديث وإلا فهذا المجلس المكروه إن طال سيضيّق عطني ، ويستفز كامن عصبيتي ، فاهتبلت فرصة تثاؤبه وابتدرته بالحديث قائلاً :

— الحمد لله على سلامة الشيخ

— وهل يعرف المتعلمُ رباً فيحمده ؟ ... أنت ملحد ... كافر ... درزي لا دين لك

— (فتذكرت الحكمة القائلة : داروا سفهاءكم) درزي ... ! أليس للدرزي دين ... ! يا شيخ كيف تتهمني بالكفر ؟

— كيف أكفرك ... ! ألست مسيحيًا أباً عن جد ؟

— بلى ! وليت ذلك لم يكن ؛ إذن لكنت حرًا في نوع صوفيتي مع الله ؟ وفي تكوين عقيدتي بالله ... !

— أفلا تعتقد بقول المسيح : من ليس معي فهو عليّ ؛ وبقوله يخاطب الكهنة : من سمع منكم فقد سمع مني ، ومن احتقركم فقد احتقرني ؟ ثم ألست الزاعم بأن الإكليروس هم إنكشارية الدين المأجورون ؟ وذلك نصرة لبدعة فاسدة ادعاها رجل كاذب يدعى محمد . قل لي هل يستوي النور والظلام ؟

— لا . لا يستويان

— فكيف إذن تجمع بين المسيح — الذي هو طريق الحق والحياة — ومحمد ؟ وكيف تدافع عن محمد وأنت من جند المسيح ؟

— يا سيدي ! ... قل لي ، أمن الإيمان أن نتمهن بقية العقائد ؟ .. ثم ما رأيك في الشريعة الموسوية ؟ .. أليست — في حكمك — شريعة كاذبة لأنها ليست من تشريع المسيح ؟ .. وهل كان الرسل لينسخ اللاحق منهم شريعة السابق أم ليكملها ؟ وهل فاتك قول المسيح ما جئت لأنقض بل لأتمم ؟ .. فموسى ومحمد إذن حكمهما من حيث الصدق والكذب واحد

— حاشا ! حاشا أن أعتقد ذلك . فشتان بين موسى كليم الله الذي أنقذ أمته ، وجعل العصا في يد فرعون حية ، وأخرج من الصخر الأصم مياهاً نقية ، وبين محمد — نبيك — الذي لم تؤثر عنه مكرمة ، ولا سمعت له معجزة

— وأية مكرمة أفضل من إخراج محمد قومه من حظيرة الشرك إلى حظيرة التوحيد ؟

— ليته لم يفعل ذلك . إذن لسهل على المسيحية أن ترد هذه الخراف الضالة إلى قطيعها

— ولم لا تردها الآن ما دامت ضالة عن القطيع ! ...

— هيهات ذلك ، هيهات أن يفلت الحمل من مخلب الذئب

— بل هيهات أن يسلم الذئب من رصاصة الراعي وعصاه ، وأن يصل الباطل إلى قمة الحق وذراها . والآن دعنا نحسم هـذا الجدل العنيف ، وقل لي ما الذي تشترطه على محمد لتتم له النبوة ؟

— الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة

— وأنا معك في ذلك ، وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ ، ولصار النـاس جميعهم أنبياء . والآن أعرني سمعك لأبين لك معجزة الاسلام

لقد كان العرب في جاهليتهم يعبدون إما الأصنام التي كانوا يقيمونها من بعض الحجارة والمعادن ، وإما بعض مظاهر الطبيعة المتعددة ، كالشمس ، والهواء ، والبحر ، والسماء ، ولكن العربي المتبدي لم يكن يقدم لآلهته هـذه التي راح يلتجيء إليها كلما حز به أمر ، أو داهمه خطر ، الذبائح والقرابين ، ولا كان يقيم لها الشعائر الدينية والمراسيم ، كما كان يفعل الأشوريون والفينيقيون ومن إليهم ، بل لم يكن يتحرج عن إهانتها وتحطيمها ولاسيما إذا استقسم عندها بأقداحه فخرج منها مايكره — كما فعل امرؤ القيس بن حجر الكندي — ذلك لأن العربي في الجاهلية كان قلما يهتم بما وراء الطبيعة

ولقد تسربت اليهودية والمسيحية إلى جزيرة العرب فارتدتا عنها بالاخفاق والفشل ، ذلك لأن أحلام الأولى وآمالها ، وأسرار الثانية ومعمياتها : فمن إله متأنس ، إلى رب مصلوب ، إلى أقانيم ثلاثة بجوهر واحد ، إلى استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ كانت جميعها مما ينفر منها الطبع البدوي الساذج ، أما الاسلام وإن اصطدم بالعنجهية العربية ، وتصارع مع وثنية البادية حيناً من الدهر ، فإنه تمكن أخيراً من أن يظهر عليهما بالنصر ، ذلك لأنه دين يتساوق مع العقل والقلب ، ويسوي بين الدين والدنيا ، ويجعل الفقير بذمة الثرى ، فهو في حقيقته مجموعة قواعد خلقية سامية ، ومبادىء اجتماعية مثلى ، وهل الدين في حقيقته إلا إصلاح النفس والأخلاق في الفرد ، وإقامة الفضيلة واجتثاث السوءآت في المجتمع ؟

ولئن كانت معجزة موسى أن حول العصا أمام فرعون حية ، لقد كانت معجزة الاسلام أبلغ منها ، ذلك لأنه حول مادية النفسية البدوية الضارية التي طبعت على حب الغزو والنهب ، وعلى استباحة المنكرات إلى شعلة روحية تشع في أرجاء الكون بنور المبادىء العالية ، والفضائل السامية

ولمَ نذهب بعيداً في الاستدلال ؟ وهذا البدوي الجلف ، الذي كان بالأمس ينفر من ظل الدين ، ويستحل جميع أنواع المنكرات ، ولا يتحرج من سفك الدماء البريئة باسم مجد القبيلة وجاهها ، تتخنه اليوم باسم الدين والتوحيد أسنة المشركين في أحد جراحاً ما زالت تشعب دماً ، وتمزق إهابه نبال الفرس في القادسية وقسي الروم في اليرموك ، فيستقبلها بصدر عامر بالإيمان ، ويستمري آلامها غير جزع ولا هياب ، ذلك لأن معجزة الإسلام أخرجت نفسه من حدود هـذا العالم المادي الضيق الذي يتعين بجهات الأرض الأربع ، إلى عالم روحي فسيح يتعين بعقيدة التوحيد ، وبحدودها الأربعة : التي هي : التقوى في الدين ، والحرية ، والإخاء ، والمساواة في الدنيا

ولئن كان فتى الجزيرة قبل الإسلام راعي إبل وغنم ، تختلف عنقه بين نيري الفرس والروم وتصعّرُ خدّه أيدي الغزاة الطامعين من بقية الشعوب ، فإنه اليوم بفضل المعجزة الكبرى التي تزحزح لإشراقها أسّ الإيوان ، وانصهر من حرارتها التاج والصولجان ، قد فتح ثلثي الكرة الأرضية في أقل من ثلثي قرن . فهذا خالد بن الوليد الذي لم ينهزم قط في حياته يفتح دمشق ، وهذا عمرو بن العاص يوغل في الديار المصرية ، وهذا طارق بن زياد يعبر المضيق الذي لا يزال يحمل اسمه حتى اليوم ، يريد أن ينفذ من الشطوط الأسبانية إلى سفوح جبال البرينيه ثم إلى غسقونيا وبوردو . وهذا موسى بن نصير يسرح بخيول مضر وعدنان في شرق الأندلس وغربها ؛ في قرطبة وطليطلة ، وأشبيلة ، وقادس ، وغرناطة ، وغيرها

ثم انظر إلى هـذا الفتى الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر بعد ، كيف اخترق السند وظل ممعناً بفتوحاته ، حتى أدخل الهند ضمن الامبراطورية الاسلاميـة . أليس بفضل معجزات الإسلام يربط هذا الفتى « تورس » غرب باريس ببحر الهند على ما بينهما من الشقة الواسعة والمسافة النائية ؟

أفلا يعد معجزة فى الإسلام أن يضاهى عصر المأمون فى بغداد عصر بركليس فى أثينة ، وعصر الناصر فى الأندلس عصر أغسطس فى رومية ؟ ونحن الذين كنا بالأمس نرعى الإبل والشاء ونأكل الضباب والعظاة

انظر إلى ما يقوله فينا « غوستاف لوبون » فى كتابه La psychologie Politique « زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والأخلاقية العجيبة التى أثرها المسلمون فى العالم كانت بفضل ماديتهم ، ولكن لا يصح اليوم أن نجهل ان هذه المؤثرات قد دامت فى مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون ماديتهم ونفوذهم السياسى ، فإن المسلمين فى الصين يزيدون على عشرين مليوناً ، وفى الهند على خمسين ، ولا يزال هذا العدد فى نمو ، وإن المسلمين بعد الرومان هم الأمة المدنة الوحيدة التى نجحت فى نقل تهذيبها الاجتماعى ودينها وأوضاعها وعلومها إلى العناصر المختلفة التى افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل على العكس تراها آخذة فى النمو ، تتعدى الحدود التى بلغتها فى أيام القوة المادية . إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الناس الأولية ، حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق ؛ وحيث ينزل المسلمون ، ولو كانوا تجاراً سذجاً ، تتدخل أوضاعهم ومعتقداتهم . وكلما توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة فى صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الإسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون فى تلك الفارة الغريبة ، على حين يطوف الأوربيون فى الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبى

أفبعد هذه الشهادة تطلب من الإسلام معجزة وله فى سجل التاريخ مثل هذه الصفحة الرائعة المجيدة ؟

(شرق الاردن) خليل جمعة الطوال

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أثر حروب محمد على
فى الأدبى الألمانى والفرنسى

للأديب السودانى المبارك ابراهيم

لم يكد يتولى محمد على الكبير حكم القطر المصرى باسم الدولة العلية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى بات يتحين الفرص لبسط ظله على الأقطار المجاورة . ففى عام ١٨١٨ م انتصر على الوهابيين فى الأراضى الحجازية . وفى عام ١٨٢١ م وحد بين شطرى وادى النيل بضم السودان لمصر ، وفى عام ١٨٣٢ م كانت بلاد الشام تدين بالطاعة والولاء لمحمد على

وعند ما توترت العلاقات بينه وبين حكومة الباب العالى سير جيوشه ليغزو تركيا ويخضعها لسلطانه ، بدلا من أن يظل هو خاضعاً لسلطانها ! ففى ديسمبر ١٨٣٢ هزمت الجيوش المصرية الجيوش التركية هزيمة منكرة ، وباتت على مسير بضعة أيام من استامبول عاصمة سلاطين آل عثمان !

لقد كان طموح محمد على إلى السيطرة والحكم لا يقف عند حد ، إذ كان يتوق إلى إنشاء امبراطورية مصرية مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس !

على أن هذا التوسع الاستعمارى من جانب محمد على لم يرق الأسد البريطانى ، فوقف فى طريق محمد على يزجر غاضباً ويكشر عن أنيابه ويلوح بذيله ! وتحت ضغط الظروف القاهرة اضطرت جيوش محمد أن تنسحب من الأراضى التركية قبل أن يهاجمها هذا الليث الانجليزى الهصور ، وغيره من دول أوروبا التى لا يرضيها تقدم الحكام الشرقيين فى الميادين السياسية والحربية ، وبهذا التدخل من قبل الدول الأوروبية ، بات الرجل المريض « تركيا » فى مأمن من مداهمة محمد على له والإجهاز عليه لأن هذه الدول الأوربية كانت تطمح فى الاستيلاء على تركة الرجل المريض « الأراضى التركية » واقتسامها فيما بينها . وقد وضعت هذه الدول أيديها فعلا على معظم هذه الأملاك التركية

وفى عام ١٨٤٠ م أبرم الأسد البريطانى ، والدب الروسى ، والنسر البروسى ، اتفاقية سياسية تدعى اتفاقية لندن ،